مقدمة

أصداء روحه تكاد تضرب أبواب كل روح قرأه، ونبضات قلبه تكاد تسرى إلى نبضات كل قلب عرفه، وجذْوة فكره تكاد تضيء عَتَمات المدلجين في قفار الأرض... إنه "النورسي" الذي صحبتُه منذ عرفته في أواخر السبعينات من القرن الماضي.. عشتُ معه بأفكاره وأحاسيسه ومشاعره، وفي أحزانه وأفراحه، وفي زنزاناته، ومنافيه وإقصاءاته.. حياتُه كلها حرب روحية مستعرة الأُوار، ونضال فكري لم يَعرف الهوادة حتى آخر يوم من عمره.

عاش للقرآن، وكان القرآن يسري في روحه، ويجري في أوصاله وعروقه.. فهو لا يُسبَر غورًا، ولا يُدْرَك قرارًا، ومن القرآن تعلَّم كيف يكون تفكيره كونيًّا، واهتمامه إنسانيًّا. فأحبَّ الإنسان وأشفق عليه، وحزن لآلامه، وتألم لشقائه، فدعاه للارتقاء بفكره ومشاعره وطموحاته إلى معاني الخلود والأبدية، وألاَّ يكون سليب الدنيا بضيقها ومحدوديتها، لأنها إلى الزوال والفناء تصير في خاتمة المطاف.. وحثّه على رؤية فساد نفسه وفساد العالم من حوله، وأن يتبصّر في ذاته، لأنّ هذا التبصر هو الخطوة الأولى في تبصره للعالم الواسع، مما يجعل قواه العقلية في حركة دؤوب، ومع حركتها تتحرك قواه وتتجدد، وتتحرك معها صورة العصر نحو الأفضل والأحسن.

إن مشكلة الإنسان الكبرى -كما يرى النورسي- هي في عدم تعلّمه كيف يستأصل مرارة "اللاّجدوى" التي يعاني منها، وكيف يقوم مُعافًى من مرض السطحية وعدم التركيز والتعمّق فيما يحيط به من مظاهر الكون والحياة والإنسان، علمًا بأنه يُقْذَف في كل يوم بل في كل ساعة بما يثير الانفعال والانشداه والتفكر والتعمق، ولكنه يمر على ذلك كله بعقل ذاهل وشعور ميت وحِسٍّ بارد، وكأنه لم يَرَ ولم يسمع.

والنورسي بعد ذلك كله يعلمنا كيف يخشى أحدنا نفسه التي بين جنبيه؛ فكلما زادت خشيته منها زادت معرفته بها. فإن كنت -أيها الإنسان- عاجزًا عن رؤية العالم وكأنك تراه للمرة الأولى فاعلم أنك ميت وإن كنت تمشي بقدميك على الأرض، فالعذاب الذي تتجرع مرارته مرده إلى ذلك الشعور الميت الذي يتلبسك، ويحُول بينك وبين الحياة الخصبة الموّارة بالانشداه والتعجب، والمفضية بك إلى معرفة الله ربِّ الحياة والإنسان. وهذه هي اللحظة المثالية التي يدفعنا إليها "النورسي" لكي نتحول بتفكيرنا من الأدنى إلى الأعلى، ومن صغائر الهموم إلى عُظمائها.. وفي هذه اللحظة بالذات تبدأ قواك الخفية -أيها الإنسان- بالانطلاق من مكمنها، لتتشكل رؤاك السامية فتتحول إلى مصدر عظيم من مصادر النور تضيء دروب الآخرين، وتكون سماءَ إلهام تتنزل عليهم بالأفكار والمعاني من مكان بعيد من الروح الإنساني العظيم.

وبعد:

فهذا الكتاب الذي بين يدي القارئ الكريم يضمُّ أبحاثًا كانت قُدِّمَتْ إلى المؤتمرات العالمية في "إسطنبول" وبعضِ أقطار العالم العربي لمناقشة أفكار "النورسي" وآرائه في قضايا الإسلام الكبرى إلى جانب

مقالات نشرت في المجلات المعنية بـ"النورسي" وفكره.

وقد وجدنا من المفيد أن نضم هذه المقالات إلى تلك الأبحاث مساهمة مِنَّا في رسم بعض ملامح الرجل الفكرية وإشراقاته الوجدانية التي تشكل بمجملها معلمًا من معالم خصوصية هذا الفكر المتفرد... آملين أن نكون قد أسهمنا في إضاءة جوانب خفية من شخصيته الفكرية والوجدانية..

ومن الله التوفيق والسداد.

أديب إبراهيم الدبّاغ

المدخل:
لمحات من حياة سعيد النورسي

لمحات من حياة بديع الزمان سعيد النورسي

في مطلع القرن الهجري الماضي (١٢٩٣هـ / ١٨٧٦م) وفي قرية "نُوْرْس" الواقعة في جنوب شرقي تركيا الحالية، ولد صبي لأبوين اشتهرا في القرية بورعهما المثاليين.. صبي سمّياه "سعيدا"، كتب له القدر أن يكون أحد أبرز علماء الإصلاح الديني والاجتماعي في العصر الراهن..

طفل لم تكن حياته إلاّ ملحمة من الوقائع والأحداث التي تصب جميعها في خدمة القرآن العظيم وتفسير نصوصه، وبيان مرامي آياته البينات، ضمن رؤية تبَلْورت مع الزمن ومع أطوار رحلة العمر، وكانت غايتها النهائية بث اليقظة وإعادة الحياة والفعل للأمة المسلمة بعد طول رقاد..

ما برح سعيد أن التحق بمجموعة من الكتاتيب والمرافق التعليمية المبثوثة في تلك النواحي من حول قريته نُورْس.. وكان يستوعب كل ما يقدم له من علم، وسرعان ما أضحى لا يجد ما يستجيب لنهمه التحصيلي في المراكز التي يقصدها. من هنا كانت إقامته في تلك المراكز ظرفية، إذ كان يتوق إلى الاستزادة المعرفية الحقة.. وظل يرتحل من مركز إلى مركز، ومن عالِم إلى آخر.

لم يعد يجد لدى مدرّسيه ما يفيدونه به، فأضحى يتلقى العلم بجهده، ويلتهم ما في بطون الكتب التي كانت متوفرة في ذلك الزمن من تفسير

وحديث ونحو وعلم كلام وفقه ومنطق.. كان نادرة في الحفظ، وكان يعمد إلى الحفظ عن ظهر قلب كل ما تقع عليه عيناه من تلك العلوم.. حتى حفظ ما يقرب من تسعين كتابا من أمهات الكتب.

وتهيأ بعد ذلك وبفضل المحصول العلمي الجم الذي اكتسبه في طفولته المبكرة تلك، أن يجلس إلى المناظرة ومناقشة العلماء، وانعقدت له عدة مجالس تناظر فيها مع أبرز الشيوخ والعلماء في تلك المناطق، وظهر عليهم جميعا.. وطارت شهرته في الآفاق.

وفي سنة ١٣١٤هـ / ١٨٩٧م ذهب إلى مدينة "وَانْ" وانكبّ فيها بعمق على دراسة كتب الرياضيات والفلك والكيمياء والفيزياء والجيولوجيا والفلسفة والتاريخ؛ حتى تعمق فيها إلى درجة التأليف في بعضها فسمّي بـ"بديع الزمان" اعترافًا من أهل العلم بذكائه الحاد وعلمه الغزير واطلاعه الواسع.

في هذه الأثناء نُشر في الصحف المحلّية أن وزير المستعمرات البريطاني "غلادستون" قد صرّح في مجلس العموم البريطاني وهو يخاطب النواب قائلاً: "مادام القرآن بيد المسلمين فلن نستطيع أن نحكمهم، لذلك فلا مناص لنا من أن نزيله من الوجود أو نقطع صلة المسلمين به". زلزل هذا الخبر كيانه وأقضّ مضجعه فأعلن لمن حوله: "لأُبرهننّ للعالم بأن القرآن شمس معنوية لا يخبو سناها ولا يمكن إطفاء نورها". فشد الرحال إلى إسطنبول عام ١٣٢٥ هـ / ١٩٠٧م، وقدّم مشروعًا إلى السلطان عبد الحميد الثاني رحمه الله لإنشاء جامعة إسلامية في شرقي الأناضول، أطلق عليها اسم "مدرسة الزّهراء" -على غرار الأزهر الشريف- تنهض بمهمة نشر حقائق الإسلام وتدمج فيها الدراسة الدينية مع العلوم الكونية

الحديثة على وفق مقولته:

"ضياء القلب هو العلوم الدينية، ونور العقل هو العلوم الحديثة، فبامْتزاجهما تتجلّى الحقيقة، فتتربّى همة الطالب وتعلو بكِلا الجَناحين، وبافتراقهما يتولد التعصب في الأولى والحيل والشبهات في الثانية"[١].

في سنة ١٣٢٩هـ/١٩١١م سافر إلى الشام، والتقى برجالاتها وعلمائها، وبسبب ما لمسوا فيه من علم ونجابة، استمعوا إليه في الجامع الأموي الشهير وهو يخطب في الآلاف من المصلّين خطبة حفظها لنا الزمن واشتهرت في تراثه بـ"الخطبة الشامية".. لقد كانت تلك الخطبة برنامجا سياسيا واجتماعيا متكاملا..

وباندلاع الحرب العالمية الأولى كان طبيعيا أن يهبّ بديع الزمان في طليعة المجاهدين، فشكل فرقا فدائية من طلابه واستمات معهم في الدفاع عن حمى الوطن في جبهة القفْقاس، وجرح في المعارك مع الروس وأسر واقتيد شبه ميت إلى "قُوصْتُورْما" من مناطق روسيا حيث قضى سنتين وأربعة أشهر، هيأ له الله أثناء "الثّورة البلشفية" الانفلات، فعاد إلى بلاده واستقبل استقبالا رائعًا من قِبل الخليفة وشيخ الإسلام والقائد العام وطلبة العلوم الشرعية، ومنح وسام الحرب. وكلفته الدولة العثمانية بتسنّم بعض الوظائف، رفضها جميعًا إلاّ ما عينته له القيادة العسكرية من عضوية في "دار الحكمة الإسلامية"، التي كانت لا توجَّه إلاّ لكبار العلماء، فنشر في هذه الفترة أغلب مؤلّفاته باللغة العربية منها: تفسيره القيّم "إشارات

[١] صيقل الإسلام (المناظرات)، سعيد النورسي، ص:٤٢٨.

الإعجاز في مظان الإيجاز"، الذي ألفّه في خِضَمّ المعارك، و"المثنوي العربي النوري".

وبعد دخول الغزاة إلى إسطنبول[٢] أحس النُورْسي أن طعنة كبيرة وجهت إلى العالم الإسلامي، فكان حتما عليه أن يقف في طليعة من يتصدى للقهر والهزيمة، فسارع إلى تحرير كتيب "الخطوات الست" حرّك به همّة مواطنيه ووضع تصوره لرفع المهانة وإزالة عوامل القنوط التي ألحقتها الهزيمة بالدولة العثمانية والمسلمين عامة..

وبعد هذه الفترة (أي منذ ١٩٢٢م) وُضعت قوانين واتخذت قرارات لقلع الإسلام من جذوره وإخماد جذوة الإيمان في قلب الأمة التي رفعت راية الإسلام طوال ستة قرون من الزمان.

ولم ينج بديع الزمان من شرارة الفتن والاضطرابات، فنفي مع الكثيرين إلى "بُورْدُورْ" في شتاء سنة ١٩٢٦م، ثم نفي وحده إلى ناحية نائية وهي "بَارْلا" جنوب غربي الأناضول.

يقول عن نفسه في هذه الفترة:

"... صرفت كل همي ووقتي إلى تدبّر معاني القرآن الكريم. وبدأت أعيش حياة "سعيد الجديد".. أخذتني الأقدار نفيًا من مدينة إلى أخرى.. وفي هذه الأثناء تولدت من صميم قلبي معانٍ جليلة نابعة من فيوضات القرآن الكريم.. أمْلَيتها على مَن حولي من

[٢] وفي ١٣/ ١١/ سنة ١٩١٩م دخلت خمس وخمسون سفينة حربية لأسطول دول الحلفاء إلى إسطنبول حسب هدنة "موندروس التي عقدت في ٣٠/ ١٠/ ١٩١٨"؛ اثنتان وعشرون منها لإنكلترا، اثنتا عشرة منها لفرنسا، سبع عشرة منها لإيطاليا، وأربع منها لليونان.. ووجهت مدافعها نحو قصر الخليفة الذي أصبح في حكم الأسير في قصر "دُولْمَه باغْچَه". واحتل الإنكليز إسطنبول في ١٨ مارس ١٩٢٠م.

الأشخاص، تلك الرسائل التي أطلقت عليها "رسائل النور"، إنها انبعثت حقًّا من نور القرآن الكريم. لذا نبع هذا الاسم من صميم وجداني، فأنا على قناعة تامّة ويقين جازم بأن هذه الرسائل ليست مما مضغته أفكاري وإنما إلهام إلهي أفاضه الله سبحانه على قلبي من نور القرآن الكريم، فأبارك كل من استنسخها، لأنني على يقين أن لا سبيل إلى حفظ إيمان الآخرين غير هذه السبيل... وهكذا تلقفتْها الأيدي الأمينة بالاستنساخ والنشر، فأيقنت أن هذا تسخير ربّاني وسَوق إلهي لحفظ إيمان المسلمين.. فاستشعرت بضرورة تشجيع كل مَن يعمل في هذه السبيل امتثالاً بما يأمرني به ديني"(٣).

وهكذا استمر الأستاذ النُّورْسي على تأليف رسائل النور حتى سنة ١٩٥٠م وهو يُنقل من سجن إلى آخر ومن محكمة إلى أخرى.. هكذا طوال ربع قرن من الزمان. ولم يتوقف خلاله من التأليف والتبليغ حتى أصبحت في أكثر من ١٣٠ رسالة، جمعت تحت عنوان "كليات رسائل النور" التي لم تتيسر لها أن ترى طريقها إلى المطابع إلا بعد سنة ١٩٥٤م.

واستطاعت رسائل النور بفضل الله سبحانه أن تبني في طول تركيا وعرضها مدرسة إيمانية قرآنية أنقذت الناس من التيه والحيرة والصراع والجهل والوقوع في براثن الشرك الجلي والخفي. ذلك لأنها كانت نابعة من القرآن الكريم وإدراك لطبيعة العصر وحركته وصراعات أفكاره بأسلوب مطابق لروح العصر يفهمه الخاص والعام.

لبّى الأستاذ النُورْسي نداء ربه الكريم في الخامس والعشرين من

(٣) الشعاعات، سعيد النورسي، ص:٥٤١-٥٤٢.